



قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552



أوضاع تلمسان الفكرية والعلمية في أعين الرحالة والجغرافيين ومدوناتهم خلال العهد العثماني

The status of intellectual and scientific requests in the eyes of travelers and geographers and their blogs during the Ottoman era

محمد بومدين¹*

¹ جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان - الجزائر

Key words:

Tlemcen,
the Ottoman era,
trips,
thinker's,
scientific institutions,
the 16^{A.H} / 16^{A.D} and
13^{AH}/19^{AD} centuries,
Balik West.

Abstract

This article aims to open a window of the scientific situation and intellectual history of Tlemcen during the Ottoman era as adopted and shown by the various visits of travelers and geographers, who experienced that period and recorded their incidents with impressions of great importance in the cultural field of the city then, Which enables us to detect and explore the manifestations of the temporal and spatial contexts of scientific and intellectual in the midst of the developments that have been received on the region and the repercussions on each working in science, and to demonstrate that deep recession, which was almost a complete and unusual stop to the scientific organs, had not touched some of the thinker's In those nomadic blogs and their tireless endeavors to criticize what can be redeemed.

On the other hand, despite the benefit of the Ottoman Tlemcen from the temporary cultural sophistication, which began to manifest its manifestations emerge in the second decade of the twelfth century 12A.H/18A.D, by personal initiative by Bey Mohamed bin Othman towards the edifices of the flag and dens in the West Bayelk, What can be considered here is a form of endeavors in the form of civilizational projects expressing the awakening and remarkable thinker's renaissance in Ottoman Algeria; the symptoms of the disease had exhausted the body of Tlemcen and its elite stalemates, and paralyzed it in this regard when it touched the region. And the lack of interest, which was unanimous by the impressions of most of the travelers who have their feet touched during the modern period.

ملخص

يرمي هذا المقال إلى فتح نافذة من تاريخ تلمسان العلمي والفكري خلال العهد العثماني، كما تبينته وأظهرته مختلف زيارات الرحالة والجغرافيين، الذين عاصروا تلك الفترة ودونوا حوادثها بانطباعات تكتسي أهمية بالغة في الحقل الثقافي للمدينة إذ ذاك، والتي تمكننا من أن نستكشف ونستكشف تظاهرات السياقات الزمنية والمكانية، العلمية والفكرية منها، في خضم المستجدات التي وردت على المنطقة، ومدى تداعياتها على كل مشغل بالعلم، وتدل ذلك الركود العميق الذي كاد أن يكون توقفا كاملا وغير مأثوف لأجهزتها العلمية، لولا محاولات بعض العلماء التلمسانيين، الذين تمت الإشارة إليهم في تلك المدونات الرحلية ومساعدتهم الدؤوبة في استنقاذ ما يمكن استنقاذه.

ومن زاوية أخرى، وعلى الرغم من إستفادة تلمسان العثمانية من الرقي الثقافي المؤقت، الذي بدأت بؤوح مظاهره تبرز في العقد الثاني من القرن 12هـ/18م، بمبادرة شخصية من قبل الباي محمد بن عثمان اتجاه صروح العلم وأوكاره في بايلك الغرب، والذي يمكن اعتباره هنا بحق شكلا من أشكال المساعي ذات صبغة المشاريع الحضارية المعبرة عن صحوة ونهضة علمية ملفتة للنظر في الجزائر العثمانية؛ إلا أن أعراض المرض كانت قد أنهكت جسد تلمسان وقامات النخبة بها، وأصابها في هذا المضمار بالشلل، عندما مس المدينة فيمن مسها نصيب من سوء الأحوال، وعدم الإهتمام، والذي أجمعت عليه انطباعات جل الرحالة الذين وطأت أقدامهم تلمسان خلال الفترة الحديثة.

معلومات المقال

تاريخ المقال:

الإرسال: 2020/02/03

القبول: 2020/03/28

الكلمات المفتاحية:

تلمسان،
العهد العثماني،
الرحلات،
العلماء،
المؤسسات العلمية،
القرنين 10هـ/16م
و13هـ/19م،
بايلك الغرب.

1- مقدمة

أضحت تلمسان خلال العصر الحديث محطة أنظار، وغرضنا وغاية للعديد من الرحالة الذين وفدوا إليها وأعجبوا بمنشأتها المعمارية، الدينية والعلمية منها خاصة، راصدين بالتدوين الصريح تارة والمُضْمَن له تارة أخرى ما شاهدوه، بل وفي بعض الأحيان ارتقوا إلى المشاركة والمساهمة فيه كصناع للحوادث العلمية والفكرية بالمدينة، وهو ما انعكس على ما صُوِّره وأظهره في سطور مدوناتهم التي وسمَّها التباين والإختلاف في مضمون المعلومات المقدمة وشكلها من قبلهم، تبعاً لثقافة الرحالة والهواجس المُسيِّرة والصاقلة لهدف الرحلة.

تلك هي المميزات البارزة عامة في محتوى هذا النوع الهام من المصادر التي ساهمت بالتركيز على ذكر أخبار المدن، وبدرجة أقل ما شهدته أوضاعها الثقافية في الجزائر العثمانية، ومُبرزه من ناحية أخرى لما سَكَّت عنه الكثير من المصادر الأخرى التي أهملت على ما يبدو مآل مدينة تلمسان خلال هذه الفترة، وما جدَّ عليها على مستوى أجهزتها الثقافية.

وتأسيساً عليه؛ أثرنا التطرق لهذا المقاربات الإشكالية، بمعالجتها وإقتحامها منهجياً ومعرفياً من باب أدب الرحلات والرحلات الجغرافية، التي تعتبر من بين الطروحات المفيدة في إمطة الأستار عن الكثير من المتغيرات الفكرية والعلمية الجديرة بالبحث والتقصي، على شاكلته ما توقفنا عليه بالنظرة الفاحصة والرؤية الإستنباطية لشُعاب ما لقطته أعينهم وحتى حدوسهم من سمات عليلة أو عواصف هوجاء، كانت قد هبَّت على تلمسان وغيرت أجواءها الفكرية، ووجَّهتها ودُروها ونَمَطِيَّة ومفعول مؤسساتها العلمية، من كتابات، ومساجد، وزوايا، ومدارس، وأعلامها المُسيِّرة لها.

ما شكل عندنا بعد ذلك، حداً فاصلاً ومسترسلاً بين الطور الأول من القرن 10هـ/16م، الذي عرف نوعاً من الحركة العلمية الراقية التي كانت تحصيل حاصل لثمرة عصر القوة والأبْهة العلمية لغابر زمن دولة بني عبد الواد، والعقود الأخيرة من المائة العاشرة وطيلة رديفيتها الحادية والثانية وحتى الثالثة عشر، التي جُبِلَتْ نفسها بفعل فاعل على الركود والانطواء، وأُمسَتْ سلعتها العلمية على غرار مُنتجيتها نادرة ومتكدسة، حينما فقدنا فيها الكثير ممَّا يمكن إبرازه بالبحث، أو الإعتداد به على مستوى واقع الاشكالات المتجهة لنفض الغبار عن الأحوال الفكرية والعلمية وتفاعلات أهلها التلمسانيين وغيرهم خلال هذه الفترة، لولا تلك الإشارات القليلة القيمة التي نبعت من عند مَنْ شَدَّ الرِّحال إلى تلمسان وعاش حكم الأتراك.

هو إذن ما تتبناه بالسرد التحليلي الوصفي، مركزين على تركيب ما تفرق منه وما تبعثر، وما أُطْنِب فيه أو قل في هذه المصادر الرَّحْلِيَّة وانطباعات أصحابها، من خلال الملمة تلك الشذرات، وتقصيصها وتأمُّلها، وبعثها من جديد في حلة، تتسم بالتكامل والترابط المعرفي والمنهجي، لتكون الخطوط العريضة

التي سنحاول عرضها في هذا المقصد، الذي لم يُتَطَرَّق له بالبحث والدرس الجاد أحد من الباحثين من قبل، فلا ريب إذا ما جزمنا هنا القول على إن هذه الدراسة لتعد إضافة علمية رصينة في حقل التاريخ الحديث للجزائر عامة، وبابيك الغرب على وجه التحديد.

بالمقابل؛ يُتَوَقَّع ويُفترَض من هذا المسعى على ضوء القراءة الأولية لمادته المتوفرة لدينا، أن ما قيده جل الرحالة عن الأحوال الفكرية والعلمية بتلمسان العثمانية، يمكننا من أن نغطي على الأقل النقاط الأساسية لأنشطة المؤسسات التعليمية ورجالاتها، ومدى تأثير أصحاب السلطة والقرار على ازدهارها أو تقهقرها.

كما يمكن إبراز أهمية الدراسة هذه في إن تلمسان واحدة من الحواضر التي نالت نصيباً وافراً من ثنايا كتب الرحالة عبر مختلف المراحل التاريخية، باعتبارها نقطة اتصال بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، خاصة عندما نشأت كمحطة علمية بارزة في العصور الوسطى، ما لاحظناه يلعب دوراً في كل ما كان من توثيق للأواصر الفكرية بكامل العُدوة⁽¹⁾ وخارجها آنذاك، ما جعل أصحاب العلم يترددون عليها راكبين همّة مشاق الترحال، وناشطين في مراكزها التعليمية وياهتبال حتى أنصاف القرن 10هـ/16م، هذا القرن الذي دبَّ في الدولة الزيانية خلاله الضعف وانتشر في ركائزها، وبدأ الخراب يبسط بأدواته عليها، وهي على أعتاب نهاياتها.

وقد يقول قائل، إن الحالة العلمية والفكرية، قد أخذت المنحى المذكور سلفاً، ولكن من المفارقات العجيبة، ومن غرائب مجريات الأحداث، أن الحركة العلمية فيه كانت نشطة جداً⁽²⁾، جرَّاء تظافر جملة من الأسباب وفُرها ملوك الدولة الزيانية⁽³⁾، وعملوا من خلالها على تنشيط الحركة الفكرية، بإنشائهم ورعايتهم للمؤسسات العلمية إلى حين، رغم تنافسهم على السلطة، وإشتغالهم بالحروب، ومواجهة الفتن الداخلية⁽⁴⁾.

وفي ظل هذه الظروف وما بين دَفَتَيْهَا، وَلَجَّ إلى تلمسان رحالتين مميزين، سجلا نصوصاً متعلقة بالجوانب الفكرية والعلمية، عَرِيَتْ منها الكثير من التأليف الرَّحْلِيَّة وغير الرَّحْلِيَّة، لاسيما وأنها وقعت وأتت في ظرفية دولة قَلِيَّة، أخذت فيها معالم الثقافة وأدواتها في المنطقة تشهد مخاض لنُفُوق منقطع النظر كما أسلفنا سابقاً، وفيما يلي إِبَانَةٌ له فيما جاء في «وصف إفريقي» للعالم الجغرافي الحسن الوزان، وكتاب «إفريقي» للرحالة الإسباني لويس دل مارمول كاربخال.

2- نشاط المؤسسات العلمية في تلمسان خلال القرن 10هـ/16م، كما رَصَدَهَا كل من الرحالتين الحسن الوزان، ولويس دل مارمول كاربخال

زَوَدَنَا أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/ 1528م)، الذي عاش خلال النصف الأول من القرن 10هـ/16م⁽⁵⁾، وهو يؤرخ بالمشاهدة المباشرة بوصفٍ عن تلمسان، أظهر من خلاله تمايزاً وانفراداً على أقرانه في الزمان والمكان،

بعض أفراد المجتمع أصحاب المداخل المختلفة، غير المتأثرة بهذه الدوامية وعاصفتها، التي تمثل بحق دلائل تطلعنا عن معاناة رجال الفكر آنذاك.

كما وراح الوزن بعدها يصف ما يتعلّق براتب رجال القلم وتموّلهم المميّز داخل البلاط السلطاني، عندما اقتنصوا الدرجة الثانية في السلم الإداري بعد الملك نفسه، فكتب يقول في إلتفاتته الخاصّة لهم⁽¹⁴⁾: «(...) والشخصية الثانية هو كبير الكتاب الذي يحرر الرسائل والأجوبة باسم الملك (...)»⁽¹⁵⁾.

من جانب آخر، نجد الرحالة غير غافل لثقافة المجتمع التلمساني في لباسه، لما أضاء بالكتابة ما سار عليه طلبة العلم في معتقداتهم، وميولاتهم الاجتماعية والثقافية، معطيا بذلك للوعاء المعلوماتي الخاص برحلته خاصيّة الرّحلات الإننوغرافية⁽¹⁶⁾، المرتكزة على المشاهد المباشرة لسجاي السكان وعوائدهم، كما في قوله: «(...) ويلبس الطلبة ثيابا مناسبة لوضعيتهم، فالجبل يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي لباس الأعراب، أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن (...)»⁽¹⁷⁾.

ضف أيضا إلى ذلك، الوَقَار والرّفعة اللّذين لم يهملهما الرجل لما حظي به الولي الصالح أبي مدين شعيب الغوث (ت 594هـ/1193م)⁽¹⁸⁾، دفين العُباد⁽¹⁹⁾، من قبل سكان المدينة، وما يحاذيها من أحواز⁽²⁰⁾، وفيما يلي مقتضبات تخص ما اكتفى بباب رمزيته الروحية عنه بالنص: «(...) وبها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيرا ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيرا لوجه الله، ويسمى سيدي بومدين، وهناك أيضا مدرسة جميلة جدا (...)»⁽²¹⁾.

بالموازاة مع ذلك، يلاحظ عليه كثرة إنتقاداته لرجال التصوف الدجاجة ونُعوته المتكررة في عيوبهم ونقائصهم⁽²²⁾، فالتطرف الصوفي المنتشر في كافة أرجاء العدوة في تلك الفترة بالذات، لم يكن ليغضّ البصر عنه، حينما كان مغوّلاً إنجر عنه الشيء الكبير في التأخر والنكوص العلمي والفكري⁽²³⁾.

وإذا تدبرنا تلك النفثات، التي نزع فيها القلم الوزاني منزع كل عالم عايش بدايات العصر الحديث، ونقم على من حقق حوله الأتباع واستفاد من العامة جراياتهم وعائداتهم بالحيلة التي لبست ثوب الصلاح⁽²⁴⁾، ما رأينا ينحو إلى كشف سيرة رجل إدعى العلم والولاية في صفحتين من أوراق تأليفه، اقتبسنا منها ما يفي بالغرض، عبر ما هو آت: «(...) أصبح هو نفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية، إذ لا يؤدي هو ولا ذوهه أية اتاوة للملك ولا للأعراب، لأنه كما قلت يعد من الأولياء (...)»⁽²⁵⁾.

وياسهاب في الوصف، أردفَ الوزن يحاول من خلاله، تبيان المهابة الدينية والهيبة الرّمّية، التي ألبسها العامة لهذا الشيخ في إعتقادهم ببركاته، ووقوعاً منهم لما إنتحلّه لنفسه، ما نصه: «(...) وظل السهل خاليا تماما من السكان إلى أن جاء أحد النساك

حينما كان ماراً عليها متوجها للأستانة بأمر سلطاني، وفي إطار مهمة دبلوماسية على ما يظهر⁽⁶⁾، ليبرز في هذا الصدد، وهو يسوق خبرها، مخصصا للمؤسسات العلمية وعمارتها حيزا معتبرا من حديثه عما نُسجت عليه من تزيين جميل، خاصة لما كان ميله للعلم، قد أظهر منه في هذا الضرب التاريخي، الجغرافي العالم الحاذق⁽⁷⁾، فيما أورده، ممّا شاهده على ما حوّته المدينة من: «(...) مساجد عديدة جميلة صينة، لها أئمة وخطباء، وخمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيقساء، وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس (...)»⁽⁸⁾.

بيد لا يمدنا الوزن، بمعطيات يطلعنا من خلالها عن الحياة الفكرية بتلك المدارس، في مستوياتها، ونظمها، وأساليبها التعليمية، ولو أنه في زاوية أخرى من تأليفه، وجدناه ينجح بصياغة دقيقة لمعلومات تحبل إلى مستوى ثقلي عميق، مرتبطة بطبيعة العلوم الملقنة فيها ونوعيتها، التي قدم لها بالقول: «(...) وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف المواد، سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية (...)»⁽⁹⁾، وعن حالة الطلبة المادية ومداخلهم المعاشية، يقول: «(...) وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة (...)»⁽¹⁰⁾.

وعليه، ولو يُستشف من كلام الوزن أن المرتبات تلك وضعت بطريقة منظمة، ذلك لا يعني إن وضعيّة الطلبة كانت ميسورة الحال، إلا إذا وصلوا للأعلى الدرجات الشرعية أو العلمية فيما بعد، وهو ما سوّد له بالخط في معرض حديثه عن طبقات المجتمع التلمساني في تلك الفترة، وفي شأن ذلك عنده: «(...) والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم، لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذا أو عدلا أو إمام (...)»⁽¹¹⁾.

وبالملاحظة تستدعي الإستنباط لإيرادات المؤسسات الثقافية ومصادرهما، ما كان في انطباعاته المفصلة عنها، وتراجعها في أيام تواجده فيها، والذي أدرجه في خبرها، فيما لا يخالفه فيه أحد، عندما قال: «(...) كان لهذه المملكة مردودا يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها، لكن نحو نصف هذا المبلغ كان ينفق على الأعراب وحراس المملكة، والباقي لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية (...)»⁽¹²⁾.

هذا السياق وموضوعه، حمّل ما يهمننا فيما ضُمن له الرحالة في معرض غمزات حديثه، الذي يستوجب منا التشريح المنهجي لمادته المعرفية.

ولذلك؛ فالناظر بتمعّن لكلام الوزن، وما عمّمه بالكلام عن موظفي الحاشية، التي كانت تتقاضى نصف المبلغ المقدّر حسبه بـ: 1500 ألف دينار زياتي ذهبي، في وقت كانت قد خسرت فيه تلمسان مورد ميناء وهران المهم، إثر سقوطه في يد الإسبان⁽¹³⁾، وبالتالي يمكن هنا لحظ درجة الضرر المادي التي ستعود بالسلب على الموظفين بالدرجة الأولى، خاصة وأنهم يحصلون على مرتبات ثابتة، وذات مصدر واحد، عكس بقية

على إن تلمسان كانت مبرزة فيها في هذه الحقبة والتي قبلها، والحقيقة غير ذلك، في وقت كانت فيه العناية بالعلوم الشرعية والعلوم المساعدة لها كاللغة والنحو والبيان وغيرها، الشغل الشاغل للمراكز التعليمية في الجزائر عامة، وتلمسان خاصة بما فيها المدارس.

وقد أدى التركيز عليها إلى عدم الالتفات حول العلوم الأخرى، حيث يعد قصور لا ينطبق على تلمسان وحدها، بل كان حال كل العالم الإسلامي وقتذاك، ما أدى بدوره إلى انحطاط وضعية العلوم العقلية به خلال العهد المدروس⁽³⁵⁾، وليس أدل على ذلك من قلة المشتغلين بالطب والكيمياء، الفلك والحساب، والجبر وغيرها...⁽³⁶⁾

ومن باب الموضوعات التاريخية، ومن دون الوقوع في مغبة الخطأ، فإنه حتى ولو إن بعض المدرسين التلمسانيين قد تطرقوا في مجالهم لبعض العلوم العقلية كالحساب، والفرائض، والفلك، فإن دراستهم لها لم تكن إلا لاستغلالها في الحياة اليومية البسيطة، فالحساب كان للإعتماد عليه في التجارة والفرائض وتقسيم التركات، وكان الفلك يدرس لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة.

حتى إن عدم إهتمام الجزائريين بهذه العلوم، هو الذي جعل الرحالة الأوروبيون ينتقدون التعليم في الجزائر⁽³⁷⁾، والذي بلا شك، هو انتقاد يحمل شيء من الصواب⁽³⁸⁾.

3- مشاهد حية رصدها الرحالة المغربي، لمدرسة ومكتبة أولاد الإمام⁽³⁹⁾ بمدينة تلمسان

لا يختلفنا الريب، أن الإمام أبي العباس أحمد بن محمد المغربي التلمساني (ت1041هـ / 1631م)، خاتمة هذا الرعيل، رعى ثمار أواخر العهد الزياني، الذين جمعوا بين سعة الحفظ، وعمق الدراية، والإنتاج الأصيل، والتأثير البالغ في محدثي العصر، وباقي العصور اللاحقة، لما كان أستاذ العصر، وقطب رحا المعارف، ومقصد الخاص والعام، وإعترف له بمشيمة الجماعة في كافة العلوم والفنون، قد سدَّ بظهوره فراغا كبيرا كان وشيك الحدوث، إن لم يكن قد مد بأطنابه تماما - كما نبهنا على ذلك - منذ أواسط المائة العاشرة، وما بعدها، وذلك لعوامل متنوعة ومتباينة، أهمها فقدان المؤسسات العلمية لرعاية الدولة بسبب التقلبات السياسية التي عمت المنطقة، عقب التضعف الكبير الذي أصاب أركان الدولة الزيانية⁽⁴⁰⁾، وتماهى فيها منذ الربع الأخير من المائة التاسعة⁽⁴¹⁾؛ وطال ليله، حين تحولت تلمسان إلى سلطة الأتراك العثمانيين⁽⁴²⁾ منذ عام 925هـ / 1517م⁽⁴³⁾.

ما أدى إلى تدهور عام في المعارف، تبعا لتدهور الحال في البلاد، وتعاقب الأحداث المأساوية التي عصفت بالعلم ومراكزه ومردوديتها العلمية، بعدما عرفت سُنين العجاف، وذلك ما رصده المغربي، وحقق من خلاله إجماعا في التدوين مع نظرائه العلماء الرحالة، الذين سيوافقونه الرأي بالمشاهدة والمعينة

على طريقة أهل البلاد، فأقام به مع عدد من أتباعه الذين يرون فيه وليا صالحا، (...)، وتكاثر بقره وخيله وغنمه (...)، (...) وأنه يتوصل سنويا من مختلف الجهات بمبلغ يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مثقال نذورا وصدقات من أناس مختلفين، لأن صيته انتشر في آسيا وإفريقيا بأكملها، وتزايد عدد مريديه إلى حد أن الذين يعيشون منهم معه يبلغ عددهم حوالي خمسمائة مريد، (...)، (...)⁽²⁶⁾.

هذا، وفي القرن ذاته، وفي السنوات نفسها، مع إختلاف متقدم نوعا ما عن الرحلة السابقة بحوالي 30 سنة من الزمن؛ أي مع النصف الثاني للقرن 10هـ / 16م، عرفت تلمسان زيارة إسبانية⁽²⁸⁾ رسمية، وياعاز من السلطتين الدينية والدينية⁽²⁷⁾.

هذه الزيارة التي وضعت أساسا في شكل تقرير، يهدف إلى دراسة مجتمع الإثنيات، ومن كل الجوانب في إفريقيا عامة⁽²⁹⁾، بما فيها الجانب الثقافي، الذي لم يفرد له صاحب الرحلة لويس دل مارمول كارخال (ت1019هـ / 1611م)⁽³⁰⁾، إلا حيزا ضيقا لمعالمه في مدينة تلمسان، بالرغم من معاصرته لفترة مهمة من تاريخها الإنتقالي.

فإقتصر بذلك على بعض المدارس وأساتذتها بصفة مقتضبة وهزيلة في المعنى والمضمون، وحتى في الشكل العام الذي كانت عليه هذه الحضرة العلمية قبل وأثناء دخوله إليها، ولم يستوف في سبيل ذلك، إلا إشارات طفيفة وعابرة، إستقاها بطريقة مباشرة من «وصف إفريقيا» للحسن الوزان، حيث يقول في وصفه لمنشأتها المعمارية والمرتبطة بأهل العلم ورجاله، ما يلي: «(...) ويوجد عبر المدينة كلها عدد كثير من المساجد الفخمة (...) وهي مجهزة بجميع ما يلزم (...) علاوة على خمس مدارس رئيسية مزخرفة من إنشاء بعض ملوك زناتة (...)»⁽³¹⁾.

ويضيف دائما في مجال الوضع العلمي والفكري التلمساني، وبطريقة الإنتقاء والإقتباس نفسها من كتاب الوزان، ما كان عليه حال طلبية العلم، والمصادر والموارد المالية الخاصة بهم، وبمؤسساتهم العلمية، فقال: «(...) ولها دخل للانفاق على عدد من الطلبة الذين يقيمون بها (...)»⁽³²⁾.

وبالوصف العرضي المثنى هذه المرة لما ذكره الحسن الوزان، وفي إلماعة مستفيضته عنه في عدد أساتذة المدارس وأوقات تدريسهم، ومصادر أجورهم، التي كانوا يتقاضونها، ما خص له القول، فيما أورده بالذكر قائلا: «(...) كما هناك عدة أساتذة في مختلف المدارس، يقومون بالتدريس كل يوم ويؤجرون من أوقاف هذه المؤسسات (...)»⁽³³⁾.

وفي خضم حديثه عن أنواع العلوم الملقنة من طرف هؤلاء الأساتذة في شقيها العقلي والنقلي في تلك المدارس، يقول: «(...) ويدرسون على أساتيد جميع العلوم الطبيعية والأشياء المتعلقة بدينهم (...)»⁽³⁴⁾.

غير أن ما أشار له مارمول، وقبله الوزان عن العلوم العقلية، يجعل القارئ يظن من عبارة «يدرسون جميع العلوم الطبيعية»،

المباشرة في القرنين المواليين.

ففي حدود عام 1010 هـ الموافق لـ 1600 م⁽⁴⁴⁾، تاريخ زيارته إلى مدرسة أولاد الإمام بتلمسان مع الفقيه أبو الحسن علي بن محمد بن علي البهلول (ت بعد 1010 هـ/ 1600 م)⁽⁴⁵⁾، أحد العلماء الذين طرّقوا أبواب المدينة وأقبلوا عليها في تلك السنة مع مجموعة من العلماء والأعيان، فقدموا المدرسة وحضروها، وطافوا حولها، ولفتت إنتباههم مكتبتها التي تحولت على قول المقرّي بلسان أبو الحسن البهلول، بعد تطرقه لوصف المدرسة: «(...) ولما قدم علينا حضرة تلمسان، الفقيه سيدي علي بن محمد بن علي البهلول في حدود سنة 1010 هـ، ذهب معنا في جملة من العلماء (...) إلى المدرسة الشهيرة الصيت بالمغرب المعروفة بمدرسة أولاد الإمام، (...) حتى وصلنا خزانة الكتب المشهورة فألفيناها ببابا خاوية على عروشها، وقد ملئت بالزبل، فقال سيدي علي المذكور مستجيزاً للجماعة:

خزانة للكتب مملوءة بالزبل في مدرسة ابن الإمام»⁽⁴⁶⁾.

ولئن كانت هذه المشاهد تستظهر الخراب والتدهور في مثل هذه المدارس ومكتباتها الراقية بتلمسان، فكيف هو حال أعمدتها العلماء والشيّوخ؛ هؤلاء الذين خصص لهم المقرّي جانباً راعى من خلاله صفّوتهم، مستعملاً كعادته ألفاظاً ذات دلالة معبرة لسيرهم ولقائاتهم، ما يعكس ويناقض في الوقت ذاته لما جزم به بعض الرحالة الذين سيأتي ذكرهم عن «خلو»⁽⁴⁷⁾ المدينة من العلم والعلماء، الذين كان من أمثلتهم ما نحن في صدد التعرّيج على مقتبسات من رحلته، وإذا كنا هنا لسنا بصدد الدراسة الشاملة لشخصية المقرّي وتأثيرها العلمي في زمانه، لما تكفل بذلك أكثر، بعض الذين تناوّلوا بالترجمة، وإنما غرضنا من ذلك أن نقف في رحاب من أخذ عنهم العلم وخاصة التلمسانيين منهم، الذين بزقوا له في أذنه⁽⁴⁸⁾ ووثق لهم بالقلم وعرفانهم.

فكانت تقايدده مع من أدركهم من الشيّوخ المهرة بتلمسان، ومن علا كعبهم على غرار شيخه وعمه ومشيّخته، مُكَنِّيّاً إياه بما ذكرته فهارس العلماء في لِيَّاتِها، فيكتب في ذلك: «(...) كسيدنا مفتي تلمسان عمنا سعيد⁽⁴⁹⁾، فكم نلنا معارفه قطفاً (...) عن أشياخه من أهل فاس وغيرها»⁽⁵⁰⁾.

وقال في جانب آخر، عن أحد شيّوخه، ومضيفاً لمن لازمهم وشكل حولهم رباط العلم بالمدينة نفسها، مُحَلِّيّاً إياه بـ: «(...) أبو العباس سيدي أحمد ابن الشيخ الماجد الراكع الساجد الناسك البركة النخبة الأوحّد، أبي عبد الله محمد ابن علماء الإسلام وأشرف الأنام، الذين لأعلامهم الرفع بدار السلام، سادتنا المقرّين علماء تلمسان وعظماؤها (...)»⁽⁵¹⁾.

4. علم القراءات في تلمسان على ضوء رحلة ابن عابد الفاسي

شكلت تلمسان حلقة وصل، ووسط، بين عالمين إثنين، عُرفاً

بمدارس متنوعة في علم القراءات وفنونه، وإستناداً للفكرة نفسها، وفي إطار التّمَوُّع هذا، لا ضيرَ هنا إن المنطقة سوف تمر عليها موجات من أنواع المدارس تلك، وهي الموجات التي طغى عليها اللون المشهور بطريقة الإمامين ورش عن نافع، وعندما كانت الشهرة بهذه المثابة، لم يكن أبي يعقوب يوسف بن عابد الفاسي (ت 1088 هـ/ 1682 م)، ليتجاوزها في تقايد رحلته بالإستكشاف والتدقيق.

علماً إنّ ابن عابد الفاسي، لم يذكر تفصيلات حول علم القراءات في تلمسان ما يستفاد منه في هذا الباب، وإنما إستفدنا ذلك من فقرة خطّها، وهو يصف حواشي المغرب الأقصى وما يجاوره من تلمسان شرقاً، عمّا دَلَفَ ودأَّبَ عليه سكان المنطقتين في قراءاتهم للقرآن الكريم، وبالتصريح المباشر، يقول في هذا الشأن: «(...) والغالب رواية ورش لأنها أول ما يستفتح قراء بلادنا من تلمسان إلى فاس ونواحيها بقراءة ورش لنافع (...)»⁽⁵²⁾.

5. مكانة علماء تلمسان في حلقات السند⁽⁵³⁾ عند الرحالة المغربي أبي سالم العياشي:

تُقاس مكانة العلماء، ودرجات تَبَرُّيزهم وتَمَكُّنهم في سائر العلوم، بثبوتهم ومدى إقرارهم في حلقات، وسلسلة الأخذ بالسند، فيتضح على أساس ذلك مستواهم ومستوى شيّوخهم أو تلامذتهم، وهو ما أشار إليه الرحالة أبي سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت 1084 هـ/ 1679 م)، عمن لَقَطَ منهم أمهات الفقه المالكي، وأخذ طريقه من التلمسانيين، مستظهراً لهم بطريقة الاستفادة العلمي المتواتر، في حد قوله: «(...) وهو الشهاب المقرّي فأخذه (يقصد الفقه المالكي) عن عمه إمام الفتوى بتلمسان، (...) أبي عثمان سعيد بن أحمد المقرّي، وهو أخذه عن العلامة أبي عبد الله محمد بن محمد التنسي، وهو أخذه عن أبيه الحافظ أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي التلمساني»⁽⁵⁴⁾.

لتكن بذلك أقباس فيما حازَه الرحالة، وغنم مُلْكَ جَنِيه من طليعة فحول أمة العصرين، الزياني والعثماني بتلمسان، دون أن يَلِمَ ولو إلمامة يسيرة بذكر الذين شاركوه في الاستفادة منهم، ولو كان قد أطلال النفس فيما ذكره لأفاندا، وأفاد التاريخ العلمي والفكري لهذه المدرسة التلمسانية بفوائد لا تقدر.

6. مظهرات الحياة العلمية والثقافية كما أدلى بها الشاعر الرحالة أبي عبد الله الحاج محمد بن أحمد ابن مسايب التلمساني

وفي القرن 12 هـ/ 18 م، صور الحاج محمد بن أحمد ابن مسايب التلمساني (ت 1190 هـ/ 1768 م)، مشاهداته في أبيات من الشعر، نقلها لنا من خلال رحلاته الطويلة في مدن الجزائر العثمانية، والمغرب الأقصى، وتونس والمشرق.

مضمناً فيها للكثير من مواقف الزجر، التي تَنِمُّ على عدم خضوعه لسياسة الإدارة العثمانية، موظفا أسلوب التلميح في صيغة تضمين، يستظهر من خلاله سطوة حكم عسكر الترك على تلمسان، مشبها إياهم بجيش الحب الذي غزا الأوطان، فيقول:

سلطان الحب طغى وجار عني بجيش كثرت في الحب تشواشي
من عيشه لا عيشه ولا في ظني نعيش راني بالهجر راشي
وهواها هن عراشي»⁽⁵⁵⁾.

شهادة أدلى بها الشاعر، تعكس عدم رضاه للتقهقر الذي وصلت إليه العاصمة الملكية لبني عبد الواد، وكذلك الحالة السيئة التي عاشها السكان عامة وأمثاله العلماء خاصة، تحت سيطرة وطغيان أصحاب القرار السياسي آنذاك.

فلم يجد بدا من أن يناهض، ويهاجم بشعره حكومة وإدارة الدايات بعنف، ساخطا على الأوضاع المتردية، مما اضطره بعدما حصده من سياطهم، أن يفر من تلمسان بعيدا عن الأوطان إلى المغرب الأقصى، حيث نال حظوة وشأنا كبيرين لدى أولاد وأحفاد السلطان العلوي إسماعيل (ت1139هـ/1727م)⁽⁵⁶⁾.

كل ذلك ذكره ابن مسايب من خلال قصيدته: «أراد كيف فعل مائها اختار»، المعبرة عن أوضاع تلمسان وما عاشته زمن الأتراك، لما قال:

هكذا قدر ربنا الحكيم كيف أراد فعل باحكامه فعل وقدرته
ما عليها مرتاح غني ولا عديم وكل من هو فيها مشغول تعب
غافلة ما انتهت للفلك كيف دار وبين بني وطاس وفاق الفنون
والمرينيين وبنو زيان الجدار عاندت بهم من جاء طالب الفنون
ما بقي فيها ما تعاند المدن»⁽⁵⁷⁾.

ويضيف قائلا يصف تلمسان العروسة قبل دخول الأتراك إليها:

كانت عروسة والتاج فوق راسها قاعدة في مجالس ماراها فساد»⁽⁵⁸⁾.

أما عن تداعيات الإدارة التركية بالمدينة وتعسفاتها، يقول:

هما سبب كل مشقة والخلق صابر لبلاهم
ذا القوم ما معهم الشفقة ما يرفقوا بمن والاهم
خربوا البلاد والمخزن زاد اعماهما

بعد الهناء بعد الزهو تلمسان»⁽⁵⁹⁾.

7- خراب مدينة تلمسان وجور حكامها، وتداعياتها⁽⁶⁰⁾ على أهل العلم من منظور رحلة المكناسي

تتجلى الأهمية البالغة فيما رصد ابن عثمان المكناسي (ت1199هـ/1799م)، عن تلمسان أثناء حلوله عليها على ما يظهر عام 1192هـ/1784م، في أنه استعرض بالوصف المباشر، لجانب مؤلم عاشته هذه المدينة التابعة لإداريا لبلايك الغرب، أحد البايليكات الثلاث خلال العهد العثماني المُسَيَّرَة من قبل البايات، والمعنيين لهم ممثلين مباشرين للمدن التي تنضوي تحت إدارتهم، وهو ما ظهر فيهم من سوء المعاملة ما يستحق الذكر عند المكناسي، ممَّا قاله فيما رآه عن سيرة أحد حكام

تلمسان الأتراك⁽⁶¹⁾، تنويعاً بدرجات الإجماع، وتنبيهاً منه على ما تعاطوه في حق العامة الذين في طبيعتهم العلماء.

إذ ما نَقَفُ أمامه في هذه اللَقَطَات، لأوثق شاهد على إنعكاسات الحضور التركي وانتصابه في سماء وساحة الحضرة التلمسانية، حين جاء في أول كلامه عنها أنها: «(...) مدينة كبيرة مشهورة. (...)، إلا أن الخراب استولى على كثير من أطرافها (...)، وزادها عمال الجور والظلم، (...)، فقد أخبرني بعض أصحابها كان يتردد إليها في قضاء أغراضنا، أنه رأى أهل البلد يشترون الأشياء من العطارين (...) بالزرع من قلة الدراهم بأيدي الناس، ومن قلة حياء حاكم البلد وكثرة حرصه وإذابة العامة، أن كل من يمر به حجاج بيت الله يقبض منهم شيئا معيناً على أمتهتهم وحوائجهم (...)»⁽⁶²⁾.

لكن وفي ظل المعاناة تلك، فإن نواميس العلم وأنواره لم تنطفئ في تلمسان حتى ذلك العهد، فعلى غرار علمائها الأحياء الذين فضلوا البقاء في تلمسان لمواصلت نشاطهم العلمي الخافت والصامد، ذو صبغة التواصل الداخلي والخارجي خلال هذا القرن، أمثال الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد الله أيوب التلمساني (ت1172هـ/1758م)⁽⁶³⁾، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله الزجاني (ق12هـ/18م)⁽⁶⁴⁾؛ وغيرهم...، فإن تلمسان العثمانية كانت تشتهر أيضا بنخبة أخرى حافظت على حركيتها كما يقال، رغم أنها شهدت المآثم في رجالها العلماء من النجباء ومدافنهم⁽⁶⁵⁾، التي غدت منارة شامخة⁽⁶⁶⁾ ببريقها الوهاج ليس في تلك الأزمان وحسب، بل حتى اليوم.

لهذا، فإذا كان قدر العالم يقدر بمقدار ما خلفه وراءه من أصدقاء، فإن تلمسان وعمدائها الأولياء، قد تركوا وراءهم الدنيا تلهج بذكر أسمائهم⁽⁶⁷⁾، وهو ما تقتطفه بحق وشغف التدوين عند المكناسي، في أمر أقطاب الأمة التلمسانيين، ما يرجعنا لزمن القوة والإزدهار الثقافى، ملتسمين ذلك، فيما يلي: «(...) وخيمنا بظاهرها فتقضيها ضرورياتنا ولوازم السفر، وزرنا تربة الولي الصالح المستصرخ به في جميع الأقطار، القطب سيدي أبي مدين الغوث نفعنا الله تعالى ببركاته، وتربة الشيخ البركة القدوة الصالح سيدي محمد السنوسي⁽⁶⁸⁾ نفعنا الله به»⁽⁶⁹⁾.

في زاوية أخرى، وفي السياق نفسه، وعقب عودته الثانية لقبر أبا مدين شعيب، أثناء الرجعة التي نسج فيها على منوال الأولى بالمقصد والتبرك، باشر الرحالة يَخطُ القلم في وصف مدافن أولاد الإمام علماء تلمسان، بإشارة تغني اللبيب، عندما استعصى عليه إيجادهم، وفي الآتي عنده ذكرهم، بالقول: «(...) ثم توجهنا لزيارة القطب المشهور سيدي أبي مدين الغوث (...)، وقد كان بقي في خاطري المرة الأولى لما مررنا من هناك زيارة ابني الإمام أبوا زيد عبد الرحمان وأبوا موسى عيسى ابنا الامام، فقد عاقني عن زيارتهما والبحث عليهما السفر والرفقة، (...)، ولما رجعت هذه المرة لم يكن لي هم غير زيارتهما، (...)، فبعثت لقاضي البلد (...) فبعث معي من أراني إياهما جزاه الله خيرا، وقبرهما على قارعة الطريق المارة من تلمسان إلى سيدي أبي مدين، دائر بها بناء قصير لا سقف له، فوقفنا عليهما وقرأنا

أصابها المسخ إذ عادت مناصب العلم للأجلاف والخور

لهما ما شاء لله من القرآن (...)»⁽⁷⁰⁾.

وكيف لا وجنود الترك حولكم تسوقكم بعضى الخسف لا تذر»⁽⁷⁶⁾.

9- تراجع علماء بيت⁽⁷⁷⁾ اليبدي⁽⁷⁸⁾ المناوي⁽⁷⁹⁾ التلمساني، من خلال رحلات أبوراس الناصر

أبوراس الناصر (ت 1238هـ/1823م)، من بين، من عُرف مشرقاً ومغرباً، وعُرف من الشيوخ ومن الحفظة ليس بالقليل، وممن ذكر لنفسه وذكر فيه الكثير النافع من أخباره وأحواله، وخاصة في مستهل حياته، وما بُنَّه عن نفسه وعن أهل شيوخه، وغيرهم من سكان وطنه وعلية العلماء والأكابر فيه، في الرحلات التي دونها في مؤلفه الموسوم بـ: «فتح الإله ومُنته في التحدث بفضل ربي ونعمته».

فلا غرو بعد ذلك، أنه سوف يغرف من مختلف فنون العلم وشعبه على يد علماء تلمسان التي وَلَجَ إليها هي أيضاً، وخص جزء من رحلته لذكر علمائها الأخبار وبيوتاتهم، عندما تكلم عنهم قائلاً: «(...) وأما علماؤها فأولاد ابن زاغو من مغراوة والعقابنة من قرية بالأندلس والمزارقة من عجيسة أهل جبل وسلات بافريقية وأتى سلفهم لتلمسان، والمقارة من مقرة، قرية بمزاب افريقية وأولاد الامام، والشرفاء الأدارسة أبي عبد الله وأولاده والشيخ أحمد بالحاج المناوي وبنوه»⁽⁸⁰⁾.

وبشكل من الإفاضة منه في تحقيق نسب آل اليبدي التلمساني، وذكر سيرهم، يقول أبوراس عن مؤسس هذه الأسرة العلمية، أبو العباس أحمد المناوي، ما نصه: «(...) ويبدو أنه مؤسس هذه الأسرة العلمية لأنها تنسب إليه»⁽⁸¹⁾، وبنحو ذلك أشار لشيخه المباشر من هذه العترة الأسريّة، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن اليبدي التلمساني (عاش في القرن 12هـ/18م)، بأنه: «من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المناوي»⁽⁸²⁾، مثنيا إياه برسوخ قدمه، وفائدة زمانه، بما قاله عنه، أنه: «وحيد الأوان وعلامة الزمان، وعلم تلمسان وعالمها، وقاضي الجماعة بها، شيخ الإسلام الحبر الهمام»⁽⁸³⁾.

مضيفاً في غتراب أستاذة هذا، وجملة الأسباب التي حملته على ركوب هول الرحلة ومشاقها، لما عُزِلَ عن القضاء، والمناصب التي تحمّد وترتضي، وهما ما سَمَتَ به هِمَّتُه، ونَمَتَ به رِفْعَتُهُ إلى الرحلة إلى المشرق ثانياً، فكانت هجرته نهائية إلى الحرمين الشريفين، وذلك ما عبر عنه أبو راس، ذاكرة إنصراف شيخه عن موطنه ومرتعه، بقوله: «ونبذ تلمسان نبذا كلياً، واتخذها وراءه ظهرياً (...)»، ولما قيل له، قال: قد طلقته بتاتا، قائلاً: فما قلبي إليها يرجع ويسفر، فودعها وداع من لا يعود، وأعرض عن العشائر والأقارب والأهل، وأضرحة الجدود، ولحق بالحرمين الشريفين، وأخذ معه من المسجد أكثر من ألفين، فضلاً عن الورق، الوريق»⁽⁸⁴⁾.

كما تعرض أبوراس لسلييل ونجل شيخه السابق، والذي يعد حسب قوله أيضاً، ممن لازمهم بالأخذ واقتطاف ورده، وشرب رحيقه، سيدي حامد محمد بن عبد الرحمن التلمساني، وفي

8- أحوال أعلام الفكر والثقافة في تلمسان، كما قيّد أخبارهم المؤرخ الرحالة أبو القاسم الزياني⁽⁷¹⁾ التلمساني

أدرك أبو القاسم الزياني (ت 1241هـ/1836م)، وهو يصف شيخاً تلمسانياً لمحّه بالشوفِ المباشر، عندما قدم تلمسان وخشّ جامعها الكبير، وحضر مجلس هذا الشيخ الذي أبدى على حسب الزياني يتغنى بمظاهره، وغير مراعاة لحالته العلمية المتردية بالسؤال، لدليل على مدى هشاشة مستوى بعض أصحاب المناصب الشرعية والعلمية في تلمسان العثمانية⁽⁷²⁾ آنذاك، عندما قال فيه: «(...) ولما دخلت مدينة تلمسان التي لا يعرفني بها إنسان (...)، فكنت أقصد المسجد الجامع لعلي أجمع برئيس، (...)، وأبحث عن الأعيان والأعلام، (...)، وكان يمر بي رجل بهي المنظر، نظيف الثياب صقيل الغفر، يلحظني شرّاً، ويميل عني كبرا، يطرق البادي ولا يسلم، ويبخل بالجواب عن المتكلم، ويرى أنه من الطبقة العليا (...)، أحسبته من جهابذة الأعلام، (...)، فقصد الكرسي يمين ويسار، وصعد على أدراجة ينتشر، فدنوت منه شغفا بعادتي، (...)، فلم أجد في سفرته ثمراً منه التقط، ولا في روضته زهراً بقطافه أغتبط (...)»⁽⁷³⁾.

ولما كان الزياني منصرفاً لتتبع هذه الشخصية، فقد إعتنى بالبحث عنه وحاول الوقوف على منصبه وعُلو شأنه، فأضاف في ناحية أخرى من حديثه عنه، يقول: «(...) ولما سألت عن حاله ومنصبه، المغتر بجماله، قيل لي أنه قاضي المواريث، من محلى الخبائث، فحينئذ قطعت نظري عن الأنس، (...)، وقصدت قرية أبي مدين بالعباد، (...)، وقلت مخاطباً لهذا المتكبر الذي هو بقسم الترائك يفتخر:

يا من تكبر فوق ما يناسبه وظن أن خدمته الشمس والقمر

وتاه عجا وظن ببشاشته وازور من قوة تخاله الحجر»⁽⁷⁴⁾.

ولأبي القاسم الزياني وصف آخر، يحوي في ثناياه مشاهد الفراغ العلمي والفكري، الذي كانت تتخبط فيه نخبة تلمسان وتستصرخه خلال الربع الأول من القرن 13هـ/19م، فيما ساقه عن من نهَلَ عنه العلم من هؤلاء، وقرأ عليه سماعاً، وسار إليه من كل أوب، في قوله فيهم: «(...) ولما انتقلت من تلمسان ونزلت بجوار أبي مدين بالعباد، (...) انهال علي طلبت البلاد من ذلك المصر، (...)، (...) وقصدونا للأنس والمذاكرة، (...)، وأتحضون بما عندهم من كتب الأخبار، وتواريخ من كان يبليدهم من الأخبار (...)».

إلى أن يقول: «(...) وهؤلاء الطلبة الذين بتلمسان ليس فيهم من يحسن منطقاً ولا لغة ولا عربية لا صلاح اللسان، ولا يتعاطون الفروع الفقهية، والأحاديث النبوية»⁽⁷⁵⁾.

ويختتم كلامه عن المدينة قائلاً:

كانت تلمسان بالأعلام صائلة وبالجياد ولم تربط بها الحمر

السلاطين الزيانيين، خلال فترات متعاقبة من مدة حكمهم، كما تَعَنَّى بدقّة روعتها وروبقها الحسن الوزان، في حين لم يكن باستطاعة من عَمَرَهَا فيما بعد، أن يقف في وجه الأوضاع السياسية والاجتماعية المتردية زمن الأتراك العثمانيين، فيما أخبرنا به كل من الرحالتين الزياني وأبو راس

- نقل لنا الزياني في أبيات شعره المضمنة في رحلته، مظاهر عزوف النخبة التلمسانية عن الإجتهد الفكري، معللا ذلك في هيئة الجلاد التركي وسيفه المقارع لكل عالم تلمساني، وهو ما وقف عليه بالدليل مع رجل لم يكن أهلا لمنصب حاز عليه بالجامع الكبير للمدينة، واصفا إياه بأوصاف، أكدها من جانب آخر الرحالة أبو راس الناصر في خبره عن شيخه البيدي المناوي التلمساني، الذي ترك تلمسان، ونَفَرَ مِنْهَا أثناء عزله عن إمامة جامعها الكبير وهو أهلا له، لما أصبحت المراتب العلمية والدينية الحساسة تُباع وتُشترى في المدينة، أو على الأقل تسند إلى من إتبع طريق ولي نعمته من الأتراك.

- يعتبر من بقي من عمدا بيت البيدي المناوي بتلمسان، وبقيّة علماء المدينة الذين تمت الإشارة لهم في المتن ولم يهاجروا بلدهم، بمثابة الجذور من السواقي والجداول الفكرية والعلمية المتفرعة عن تيار نهر العصر الزياني الذي لم يَجِفْ، وبقي ببريق رجاله العلماء محل إستقطاب لوفود النذر القليل من الرحالة العلماء، من مشارق الأرض ومغاربها، طيلة الفترة الحديثة بتلمسان العثمانية.

تضارب المصالح

❖ يعلن المؤلف أنه ليس لديه تضارب في المصالح.

الهوامش

1- العودة: مصطلح يقصد به في اللغة المكان المتباعد، والمكان المرتفع، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم، بعد بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿... إِذْ أُنْزِلَ بِالْأُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُوَ بِالْأُدْوَةِ الْقُصْوَةِ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَغَيِّبَ مَنْ حَيٌّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال 42]، بمعنى ما يلي المدينة وما يلي

مكة، ولقد إنتقل هذا المصطلح إلى بلاد المغرب عبر الكتاب المشاركة على الأرجح، فأطلق على ضفتي كل مجال يفصله مجرى مائي، فوجدت العودة المغربية التي يقصد بها تونس والمغرب والجزائر والعودة الأندلسية لما يفصل بينهما من ماء البحر الأبيض المتوسط. ينظر حول الموضوع: المعلمة (1989م)، قاموس مرتب على حروف الهجاء يحيط بالمعارف المتعلقة بمختلف الجوانب التاريخية والجغرافية والبشرية والحضارية للمغرب الأقصى، (ج18)، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، ص 6006.

2- ومما يؤكد احتفاظ تلمسان ببعض مآثرها خلال هذا القرن والذي يليه، هو شد الرحال إليها من طرف بعض علماء المغرب الأقصى، الذين أخذوا عن علمائها خلال هذه الفترة العصبية من تاريخها كشيخ عيسى بن محمد البطوئي صاحب «مطلب الفوز والفلاح» (ت 1040هـ/1630م)، والشيخ أحمد بن إبراهيم الراسي (ت 1039هـ/1630م)، الذي درس بها سنين عديدة، أما العلامة محمد اليستنتي، فقد دخلها أثناء رحلته إلى المشرق عام (927هـ/1528م)، وسمع على الشيخين محمد بن موسى مفتي تلمسان وسعيد النوني. ينظر: محمد حجي، (1978م)، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، ص 456.

3- Barges Labbe. (1887). Complément De L'Histoire Des Beni Zeiyene. Ernest Leroux. Librairie éditeur. P.P. 125-159.

وتحليلته عنده، أنه كان: «الكوكب الدري، شيخنا الشيخ البيدي، الأنجد الماجد، ابن الشيخ سيدي حامد»⁽⁸⁵⁾.

بهؤلاء فطاحل الشيوخ التلمسانيين المتقنين إذن، وما يتصل بهم من فروع العلم، إستمرت تلمسان وقلبها العلمي يخفق بسكون في زمانه ذلك، وبهذا كان لأبي راس التفوق على الأقران، والتبريز على من عاصروه من حملة الألواح والأقلام، وبه استطاع أن يتبوأ مجالس العلم والعمل، وأن يتَسَنَّم كراسي المشيخة في أكثر العلوم والفنون، وبذلك شهد له عامة من ترجموا له من المؤرخين.

على أننا نلمحه مع ذلك، حزينا، آسفاً، على ما تتجلى به درجة الحضيض التي طمست شارة العلم في تلمسان، ولاحت فوقها سحابة سوداء، وطال بها المقام، إلى حين يأتي الفرج، في حد قول أبي راس: «(...) أما الآن فهي كأمس الدابر والميت القابر (...)» فاقول: تلمسان وما أدراك بتلمسان (...)، وبحر العمارة، (...) المعمرة بالقراءة والتكبير والتهليل، والعلم الدقيق الأثيل، (...) فأصبحت خادمة الحس (...). يا تلمسان اصبري على كمد الزمان وكده، (...) عسى الله أن يأتي بالفتح وأمر من عنده»⁽⁸⁶⁾.

10- خاتمة

إنَّ ما أوردناه فيما تقدم معنا، والذي لم يكن في أي حال من الأحوال يكفي لبناء صورة وافية عن الحياة الفكرية والعلمية بتلمسان العثمانية، ونظرا لذلك، ومن خلال المعلومات القليلة والشحيحة التي قمنا بعرضها ثم تحليلها وتقصيها من كتب أدب الرِّحلات والرحلات الجغرافية والاثنوغرافية خاصة، وقفنا على ما يمكن أن نوجه به هذا المسعى إلى مجموعة من الإستنتاجات ذات الدلائل الأصلية، والقرائن التاريخية الهامة، نقاطها في الآتي:

- أدت التطورات التي مسّت المؤسسات الثقافية بتلمسان منذ النصف الأول من القرن 10هـ/16م، إلى التأثير بشكل سلبي على الحركة الفكرية، وعلى الرحلة العلمية الوافدة إليها، التي تعطلت وقلت، كونها تُعدُّ مرآة عاكسة للمستوى العلمي في وجهتها، وهدفيتها، كان سببه متمثل ومرتبط أساسا بتلاحق الاضطرابات السياسية والعسكرية، وانعدام الأمن وهواجسه الزمنية والمكانية، لتعيش المدينة في كَنَفِ ذلك، مرحلة إستنزاف فكري عميق، لم يكن ليحد من الإجتهدات العلمية الرِّحليّة التي لاحت مع النذر القليل من علمائها وغيرهم، راكبين هول الصّعاب ومعايشين، ومسافرين لواقعهم المرير، ومحافظين من جهة أخرى على الموروث التلمساني وأصوله.

- أجمعت مدونات هؤلاء الرحالة التلمسانيين وغيرهم، على ما أضافه الحكم التركي العثماني، من جُرْعِ هدامة على مستوى مراكز العلم والعلماء بالمدينة، والتي كادت أن تقضي على النخبة التلمسانية قضاء مبرماً، لولا جُود القدر وحسن صنيعه، الذي لم يَعدِم حظّ تلمسان العلمي، حينما ورثت مجموعة من صُرُوح المدارس، المُشيّدة أغلبها بإبداع من قبل

التالي: «(...) مدينة صغيرة شبه ريف، تقع في الجبل على بعد نحو ميل جنوب تلمسان، وهي كثيرة الازدهار وافرة السكان والصناع، ومعظمهم من الصباغين، وبها دفن وتلي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلم من عدة درجات(...)». ينظر: أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/1528م)، مصدر سابق، (ج2)، ص 24.

20- الحوز: مصطلح جغرافي يعني الضاحية، أي ضواحي المدينة وخارجها، وما يحيط بها. ينظر: (المعلمة)، مرجع سابق، (ج11)، ص 3630.

21- أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/1528م)، المصدر السابق، (ج2)، ص 23.

22- وجب الإشارة هنا، أن الوزان لا يتساهل أبداً مع رجال التصوف الدجاجة في سطور مؤلفه، إذ يصفهم بأوصاف تنم عن امتعاضه من تصرفاتهم، كونه قد عاصرهم، وعاش بالأخص فترة إنتشار هذه الطرُق التي زاعت عن سُنن المتصوفة المعتدلين الأوائل منهم أم المتأخرين، لتتحول مع بداية القرن 10هـ/16م، إلى سلوكيات منحرفة، فبدأ يتقمص دور الرجل الصالح كل شخص أراد تحقيق مصالحه وأغراضه تحت غطاء الدين وإدعاء الولاية، منتهزين الضعف والخوف الذي أصبح هاجس مقلق يعيشه سكان العدو، الذين رأوا في هؤلاء المخلص والحامي لهم من الخطر الخارجي المثل في التحرشات الأيبيرية منذ سقوط الأندلس سنة 1492م. ينظر حول الموضوع:

Luise (M). 1906(Le Maroc Dans Les Premières Années Du XVI Siècle Tableau Géographique D'après Léon L'Africain. Libraire Antiquaire. Rue De Buol. Paris.

23- لقد فش واستشرى أمر هذه الظاهرة، وتفرعت، وبالغت في الاعتقاد بشيخ الزاوية وأبتدعت الحضرة والأوراد وغيرها من الاعتقادات الصوفية، فأنحط العلم والتعليم وإكتفى بالقليل منه وانعدم التنافس فيه والإجتهد، وصارت المعرفة والثقافة تضمحل يوماً بعد يوم، حتى عم الجهل وسادت فيه الخرافات وقبل العقل هذا التدهور الفكري، والسبب الرئيسي هو الايمان بالأولياء وكراماتهم وتعدد الطرق بين زاوية وأخر، وتغصب أفرادها لنصر طريقة شيخهم. ينظر: بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان، (2001م)، الأدب العربي الجزائري عبر النصوص أو إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر من الفتح العربي إلى عصرنا، (ج2)، مؤسسة الطبع والإشهار، تلمسان، ص 189.

24- أبو الحسن عبد الكريم الفكون (ت 1070هـ/1665م)، (1987م)، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحرر: سعد الله أبي القاسم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص ص 117 - 194.

25- أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/1528م)، مصدر سابق، (ج2)، ص 28.

26- نفسه، (ج2)، ص 29.

27- Edouard (A). Encyclopédie Catholique Répertoire Universel Et Raisonné Des Sciences, Des Lettres, Des Art Et Des Métiers - Une Bibliothèque Universelle Avec La Biographie Des Hommes Célèbres (T.1). Parent Débarres Editeur De L'Histoire D'Angleterre. Paris. P. 463.

28- Feller (F). 1839(Dictionnaire Historique Des Hommes Qui Se Sont Fait Un Nom. Nouvelle Edition, T 4. Bessancn Outhenin Chalandre Fils Editeur. Paris. P. 349.

29- Thomas (D). (2014). Chesworth (J). Christian - Muslim Relations . A Bibliographical History. Western Europe (1500-1600). (V.6) . Leiden . Boston. P. P. 283 . 292.

30- ولد لويس دل مارمول كاربخال في شهر جوان من سنة 1520م، بمدينة غرناطة، وهو ينتمي إلى عائلة ذات مركز متوسط في إسبانيا، وبعد فترة قصيرة أصبحت أسرته من الطبقة الأرستقراطية، عندما بدأت تشارك في شراء الأراضي من المورسكيين، لتقوم بإعادة بيعها بطريقة غير شرعية خدمت للعائلة الملكية من جهة، ويهدف الحصول على إمتياز ذلك من القصر الملكي من جهة أخرى، وهذا ما فتح لها المجال بأن تصبح من أكبر العائلات الأرستقراطية البرجوازية آنذاك، ولقد بدأ لويس دل مارمول كاربخال مشواره العملي وعمره حوالي أحد عشرة سنة، وذلك عندما رافق شارلكان في حملته على تونس منطلقاً من غرناطة سنة 1535م، يُعد لويس دل مارمول بذلك من العسكريين عندما خدم كجندي في جيش شارل الخامس، الذي استعاد تونس من خير الدين في السنة نفسها، ولما عاد شارلكان لإسبانيا ترك وراءه العديد من الجواسيس، من بينهم لويس دل مارمول

4- أبو زكرياء يحيى ابن ابي بكر محمد بن محمد بن الحسن ابن خلدون (ت 780هـ/1380م)، (1903م)، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، (ج1)، مطبعة بيبير بونطانا، الجزائر، ص ص 140 - 164.

5- العباس بن إبراهيم السملالي، (1993م)، الإعلام بمن حل مراکش وأغامت من الأعلام، (ج3)، راجعه: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ص 148.

6- إسماعيل العربي، (1994م)، دور المسلمين في تقدم الجغرافيا الوصفية والفلكية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص. ص 207. 213.

7- محمد الحجوي، (1935م)، حياة الحسن بن محمد الوزان وآثاره، المطبعة الإقتصادية، الرباط، ص 89.

8- أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/1528م)، (1983م)، وصف إفريقيا، (ج2)، تر: محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، ص 20.

9- نفسه، (ج2)، ص 20.

10- نفسه، (ج2)، ص 21.

11- نفسه، (ج2)، ص 21.

12- نفسه، (ج2)، ص 23.

13- Henri (L). 1958. Histoire D'Oran Avant Pendant Et Après La Domination Espagnole. Typographie Adolphe Perrier éditeur, Oran. P.P 65- 75.

14- تطبع رحلة أي رحالة بتكويناته وميولاته وحياته السابقة، فكل رحالة تكون رحلته ومضاهها صورة تعكس ما عاشه وألفه من بعد، وهذا قد حدث مع غير واحد منهم، على غرار ابن بطوطة التي طبعت رحلته بطابع التدقيق الإداري، عندما كان هو نفسه قاضياً وبقية أفراد عائلته أيضاً، وذلك ما كان مع الوزان الذي قيد بتركيز دقيق كل صغيرة وكبيرة تخص إدارة القصر السلطاني، لأنها تعني له الكثير، حينما كان هو بذاته ووالده كاتبان للسلطان الوطاسي المعروف بالبرتغالي. لنفاصيل أكثر ينظر:

Rauchenberger(D)(1999). Johannes Leo Der Afrikaner. Seine Beschreibung Des Raumes Zwischen Nil Und Niger Nach Dem Urtext Wiesbaden Harrassowitz.

15- أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/1528م)، مصدر سابق، (ج2)، ص 21.

16- الرحلات الاثنوغرافية: هي رحلات تهتم بطبيعة عادات وتقاليد السكان ودياناتهم وغيرها من أساليب الحياة ومعاشتها، وهناك إختلاف بين الرحال والرحالة الإثنوجرافي، فالأول تشكل عنده الرحلة موضوع وهدف، عكس الرحالة الاثنوجرافي، الذي لا يهتم بالرحلة بقدر إهتمامه بالناس الذين تعايش معهم وعائنتهم، فبذلك يكون الوعاء المعلوماتي للرحلة الإثنوغرافية أغزر من الرحلة العادية. للمزيد ينظر: محمد فهم حسين، (1978م)، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 30.

17- أبو علي الحسن بن محمد الوزان (كان حياً سنة 935هـ/1528م)، مصدر سابق، (ج2)، ص 21.

18- أبو مدين شعيب الغوث بن حسين الأنصاري (ت 594هـ/1193م)، هو الإمام العارف بالله شعيب بن حسين الأنصاري، من مشاهير الصوفية، أصله من الأندلس، من حصن «قطنيان» التابعة لإشبيلية، أقام بفاس طلباً للعلم، ولكنه سرعان ما استهواه التصوف الذي تنقل في مرتبته حتى بلغ مرتبة «القطب والغوث»، وعندما شد الرحال إلى مكة بغية أداء فريضة الحج، لقي الصوفي الكبير عبد القادر الجيلاني كما قيل، وأتم على يده علوم التصوف، وبعد عودته إلى عدوة المغرب إستقر بتلمسان واشتغل هناك بتعليم الصوفية، ونشر تعاليمه التي تخالف مذهبهم، فاستدعاه بسببها السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور إلى مراکش لمناقشته، ولبي الشيخ الدعوة، غير أنه توفى قرب تلمسان التي لا يزال قبره مزاراً بها قامت حوله مدينة العباد. للمزيد حول سيرته ينظر: عبد الحليم محمود، (1985م)، شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله، دار المعارف، القاهرة، ص ص 21 - 49.

19- العُباد: جاء وصفها في كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان على الشكل

نسبهم إلى شرفاء غرناطة «بني حمود»، كانت زوايهم بمجاجة مقصداً للتعليم والتعليم وقضاء الحوائج. ينظر: عادل نويهض، (1980م)، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض للثقافة والتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ص 286. عبد الكريم الفكون، مصدر سابق، ص ص 225 - 226.

46- أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ/ 1631م)، (2004م)، رحلة المقرئ إلى المغرب والمشرق، تح: بن عمر محمد، مكتبة الرشاد، الجزائر، ص 140.

47- جعلت كلمة «خلو» بين شولتين لتبيين موقفنا المتحفّض والمعارض إلى حد ما، لما جاء اعتقادا عند الدارسين والباحثين في الحقل الثقافى خلال العهد العثماني، فيما شاع بينهم من كتابات توحى بفراغ مدينة تلمسان من أي جو علمي أو فكري يعتد به بالبحث في هذا المجال، واستعمال الشولتين معناه وضع مسافة فكرية مع المصطلح أو عبارة ما... تستدي المعارضة على اختلاف مستوياتها في بناء الأفكار التاريخية «L'historiographie».

48- أسلوب البزق في الأذن: تعبير مجازي وأسلوب في التعليم، وأول من وظفه في طبائ تاليفه العالم والمؤرخ التلمساني ابن مريم الملبتي في «بستانه» وهو يترجم لأعلام تلمسان، وتفسير هذا الأسلوب هو أن يأخذ الطالب العلم من نفثات فم شيخه مباشرة، فيلازمه أوقاتاً طويلة وجها لوجه، لا بالإجازة العابرة أو المكتوبة، يُراجع:

Abū Abdallahe Mohamed Ibn Mohamed Ibn Ahmad El Cherifs El Tilimsāni . El Melity Ele Madyouni . Ibn Mariam.)1910(El Bostan ou Jardin Des Biographies Des Saints Et Savants De Tlemcen. Tra Par: F.Provenzali. Imprimerie Orientale Fontana Frères. Alger.

49- أبو عثمان سعيد بن أحمد المقرئ (كان حيا سنة 928هـ/ 1522م): هو سعيد بن أحمد بن أبي يحيى بن عبد الرحمان بن بلعش المقرئ، تلقى العلوم الأولى وهو صبي، فحفظ القرآن الكريم، وألم على مصنّفات النحويين من «أجرومية» و«الفنية» وغيرهما، ثم راح ينهل من مختلف صنوف المعرفة وفنون العلم حتى بلغ شأنا عظيما في الدرس والتحصيل، ولا سيما في التوحيد والفقه والعربية والأمثال وأيام العرب، كما برز في العلوم العقلية من حساب، ومنطق، وفرائض، وهندسة، وطب، وتنجيم، وفلاحة... توفي سنة 1011هـ/ 1611م. ينظر: محمد مرتاض، 2004، من أعلام تلمسان - مقارنة تاريخية فنية -، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ص ص 285، 288.

50- أبو العباس أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت1041هـ/ 1631م)، مصدر سابق، ص 193.

51- نفسه، ص 148.

52- أبو يعقوب يوسف بن عابد بن محمد الحسني الفاسي (ت1088هـ/ 1682م)، (1993م)، رحلة بن عابد الفاسي من المغرب إلى حضرموت، تح ونشر وتق وتغ: إبراهيم السامرائي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 60.

53- السند: هو تسلسل الرواية من المحدث إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد توسع فيه العلماء حتى جعلوه لكل علم بل ولكل كتاب سند يصلهم بواضع العلم أو بمؤلف الكتاب، لتفاصيل أكثر ينظر: على زوين، (1986م)، معجم المصطلحات توثيق الحديث، مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، ص 13.

54- أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت1084هـ/ 1679م)، (2006م)، ماء الموائد والمعروف ب: الرحلة العياشية إلى الديار النورانية 1661م - 1662م، (ج2)، تح وتق: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، المملكة العربية المتحدة، ص 266.

55- أبو عبد الله الحاج محمد بن أحمد ابن مسايب التلمساني (ت1190هـ/ 1768م)، (1986م)، ديوانه، إعداد وتق: السحنوني الحضاوي أمقران وسيفاوي أسماء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 118.

56- نفسه، ص 19.

57- نفسه، ص 41.

58- نفسه، ص 41.

59- نفسه، ص 41.

60- تواصلت حركة الهجرة للعلماء من تلمسان، وبغزارة إبان القرن 11هـ/ 17م،

كاربخال، ومن هنا تبدأ وظيفته الرحلية الجوسسية في الشمال الإفريقي، والتي امتدت لمدة إثنين وعشرون سنة. للمزيد ينظر:

Jean Louis (V). (1995). Dictionnaire Des Personnages Historiques. Editions De Fallois Fischer Taschebruch Verlag. G M B H. P. P. 841 - 848.

31- لوس دل مارمول كاربخال (ت1019هـ/ 1611م)، (1984م)، إفريقيا، (ج2)، تر: محمد حجي، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف، الرباط، ص 298.

32- نفسه، (ج2)، ص 298.

33- نفسه، (ج2)، ص 300.

34- نفسه، (ج2)، ص 298.

35- سعد الله أبو القاسم، (1998م)، تاريخ الجزائر الثقافى 1500 - 1930، (ج1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ص 348.

36- Mostefa (Kh).)2013(La Médecine en Alger Au Cours De La Période Ottomane (XVIIe - XIXe Siècle). Houma éditions. Alger. P.P. 61 63 ..

37- وذلك ما لاحظته الرحالة الإنجليزي الدكتور شو « Shaw » الذي زار الجزائر وتلمسان وقال عن وضعية العلوم العقلية فيها، بأن أي علم عقلي لم يأخذ بدرجة من الكمال، مؤكداً على أن هذه الحالة ليست ناجمة عن قلة الأشخاص الذين يمارسون الطب أو أي من المهن التي تتطلب بعض المعرفة بالعلوم الدقيقة، وأن كل ما يفعلونه هو من قبيل العادة والتعود، معتمدين في ذلك على ذاكرتهم القوية وذكائهم الفذ، وفيما يخص الطب أكد على تدهور وضعية في الجزائر كما في بقية الولايات العثمانية، مع إعترافه بقدرة بعض الأطباء الجزائريين في المعالجة ببعض الأعشاب، فخلص إلى القول إلى أن: « (...) الطب لم يكن يسير وفق قوانين معينة أو مدارس، بل كان يعتمد على ما ألفه العرف (...)». ينظر بالتفصيل:

Thomas (S). (1830). voyage Dans La Régence D'Alger. Chez Marlin éditeur. Paris. P. 48.

38- فوزية لزغم، (دت)، الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية 1520م - 1830م، مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا، وهران، ص 73.

39- مدرسة أولاد الإمام: يعود تأسيس هذه المدرسة إلى أبي حمو الزباني الأول، تكريما منه لفقهاء تلمسان الأشهر أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن الإمام، الذي بنى له مدرسة داخل باب كشوط عرفت بمدرسة ابن الإمام، أين تولى فيها التدريس والإفتاء مع أخيه، ويقول ابن خلدون عن ظروف وهدف تأسيس هذه المدرسة، ما نصه: « (...) ثم وفدا بعد مهلك يوسف بن يعقوب على أبي زيان وأبي حمو مع عمال بني مرين وقوادهم بمليانة (...) فأشاد أبي حمو بمكانهما من العلم (...) ووقع ذلك من أبي حمو أبلغ المواقع حتى إذا استقل بالأمر ابتنى المدرسة بناحية المطهر من تلمسان لطيفة العلم، وابتنى لها دارين على جانبيها وجعل لهما التدريس فيها في إيوانين معدين لذلك. واختصها بالفتيا والشورى (...)». حول هذه المدرسة ينظر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت808هـ/ 1403م)، (2000)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (ج7)، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ص ص 133 - 134.

40- محمد بن رمضان شاوش، (1995م)، باقية السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص ص 229 - 235.

41- Labbe (B). (1859). Tlemcen Ancienne Capitale Du Royaume De Ce Nom. Souvenir Dun Voyage. Challamel Aine Libraire. Paris. P. P. 78 - 156.

42- سعد الله أبو القاسم، مرجع سابق، ص 424.

43- Adrien (B). (1860). Le Pégnon D'alger Ou Les Origines Du Gouvernement Turc En Algérie. Challamel. Libraire. Paris. P.P. 58 - 74

44- أبو عبد الله محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد الحموي المحبّي (ت1111هـ/ 1711م)، (دت)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، (ج1)، طبعة حجرية، الرباط، ص 303.

45- أبو الحسن علي بن محمد بن علي البهلول (ت بعد 1010هـ/ 1600م): هو عالم زاهد، له باع طويل في الشعر والقرىض، من نسل المجابين الذين ينتهي

70- نفسه، ص ص 333 - 335.

71- يرجع النسب الأصلي لأبي القاسم الزياني إلى الأسرة الزيانية التي حكمت تلمسان ثم إنتقل بقية أفرادها إلى المغرب الأقصى، عقب أقول نجم الزيانيين بتلمسان على إثر انهزامهم نهائيا على يد الأتراك العثمانيين عشية دخول حسن بن خير الدين أمير الجزائر بعسكر الترك لتلمسان؛ ففر أميرها أحمد بن عبد الله الزياني وأعيانها لدبدو، وبه إنقضى أمر بني زيان الذين استوطنوا حواضر المغرب الأقصى وبرز فيهم عدة علماء، تقدم فيهم الفقيه ومؤرخ الدولة الاسماعيلية وكتابتها الأديب أبي القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني، والذي قام بعدة رحلات منها إلى تلمسان، لما نشب بينه وبين سلطان المغرب نزاع، وهذا ما يدل على لجوئه لموطنه الأصلي، توفي الزياني عند طلوع العصر من يوم الأحد رابع رجب عام 1241هـ / 1836م، ودفن بالمباح المتصل بقبة زاوية سيدي أحمد بن ناصر الدرعي بوطا فرقاشة من حومة السياح من طالعة فاس. ينظر حول النسب الحقيقي للزياني: عبد الكبير بن هاشم الكتاني (ت 1350هـ / 1950م)، (2002م)، زهرة الأس في بيوتات أهل فاس، (ج1)، تح: الكتاني علي بن منصور، منشورات مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص 480 - 481.

72- هي ميزة العصر، وكم يفيض كتاب عبد الكريم الفكون بذكر نماذج لهؤلاء وفيمن تعاطى منهم المناصب الشرعية لادعائهم العلم، وهم في كل ما ادعوا ما لا يصح لهم خطبة ولا نحوها. ينظر: عبد الكريم الفكون، مصدر سابق، ص ص 63 - 116.

73- أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني التلمساني (ت 1241هـ / 1836)، (1991م)، الترجمة الكبرى في أخبار العمورة براء ويحز، أو الرحلة الربانية والروضة السلمانية أو ترجمانة الدنيا وما فيها من الأمصار، تع: عبد الكريم الفيلاي، مطبعة المعارف، الرباط، ص ص 142 - 143.

74- نفسه، ص 140.

75- نفسه، ص ص 142 - 143.

76- نفسه، ص ص 142 - 143.

77- بيت بن الحاج البيدري المناوي: يرجع نسبهم إلى قبيلة «بني ورنيد» البربرية الزناتية، ويبدو من كلام أبو راس الناصر أن العالم أبو العباس أحمد بن الحاج البيدري (ت 930هـ / 1523م)، هو مؤسس هذه الأسرة العلمية، لأنها تنسب إليه، إذ يشير إليهم أبو راس بقوله: «(...) ويبدو أنه مؤسس هذه الأسرة العلمية لأنها تنسب إليه، إذ يشير إليهم أبو راس بالشيخ أحمد المناوي وبنوه(...)» الذي تصدى للتدريس في تلمسان فتخرج عليه جماعة كابن أخته الحاج بن سعيد، ومن اعلام هذه العترة الأسيية نذكر: أبو عبد الله محمد الحاج المناوي ت 955/1548م، المتصدي هو الآخر للتدريس بتلمسان، فنهل من علمه أناس كثيرون، وأبي عبد الله محمد أقران بن أبي عبد الله بن الحاج، وأخوه حدو بن الحاج (ت 998هـ / 1589م)، والشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن البيدري التلمساني (القرن 12هـ / 18م) الذي أشار إليه تلميذه أبو راس في رحلته «فتح الإله» قائلا بأنه: «من نسل عالم المذاهب الأربعة الشيخ أحمد بن الحاج المناوي» ومحلياً يلاه به: «وحيد الأوان وعلامة الزمان» وبأنه: «علم تلمسان وعالمها، وعاملها، وقاضي الجماعة بها، شيخ الإسلام الحبر الهمام»، وكذا أبي عبد الله محمد بن سعد التلمساني (ت 1264هـ / 1847م)، الذي نشأ في تلمسان وتلقى تعليمه على يد شيوخها، وهي الأسرة العلمية التي تفرعت عنها بيوتات علمية تحت أسماء مختلفة في المغرب الأقصى: أهمها: «بيت الصميلي، وبيت ابن سعيد(...)» لتفاصيل أكثر ينظر: أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد التلمساني المديوني ابن مريم (ت 1014هـ / 1614م)، (1908م)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة: ابن أبي شنب، المطبعة الثعلبية، الجزائر، ص 62، أبو راس الناصر محمد بن أحمد البرجي (ت 1238هـ / 1823م)، مصدر سابق، ص ص 29 - 108 - 149 - 150 - 151.

78- نسبة إلى «وادي بيدري» وهي قرية واقعة بالجنوب الشرقي من تلمسان، في إقليم أهل الواد التابع لبلدية عين فزة. على الطريق التلوي رقم 111 الذي يربط قرية الشولي بقرية سبدو. ينظر بالتفصيل: محمد بن رمضان شاوش، مرجع سابق، ص 444.

79- المناوي: نسبة إلى وادي «ميناء» وهو واد ينبع من الجبل الأخضر الواقع شرقي فرندة، ويصب في وادي الشلف، وعلى ضفافه بني الرومان مدينة، شيدت بجانب آثارها لاحقاً مدينة غليزان. ينظر: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون (ت 808هـ / 1403م)، (ج7)، مصدر سابق، ص، ص 44، 659.

والعقود الأولى من الذي يليه، بسبب سياسة الأتراك العثمانيين، التي ضيق عليهم إجتهاذاتهم من جهة، وعدم حصولهم على الإهتمام الواجب توفيره لهم من قبل هؤلاء الساسة، وهو الذي كان مع العديد من العلماء الذين شدوا الرحال إلى المغرب الأقصى وتونس أو مصر، ك: العالم عمار بن عبد الرحمن التلمساني المالكي (ت 1128هـ / 1711م)، وهجرته للمغرب الأقصى ثم مصر، وأبو العباس أحمد بن ثابت الشريف التلمساني (ت 1152هـ / 1739م)، الذي كانت وجهته تونس، وأبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي الفتوح الشريف الحساني التلمساني (ت 1112هـ / 1700م)، الذي أخذ من درعة ثم مصر مثنى له: ينظر: عبد الحى عبد الله الكبير الكتاني، (1982م)، فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات، (ج2)، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ص 9.

61- تجدر الإشارة هنا، أنه لم تكن وحدها معاملت حكام تلمسان السبب الرئيسي على ما يبدو في الحالة المزرية التي عرفتها المدينة في هذه الفترة، إذ تشير مصادر محلية لأسباب أخرى طبيعية أكثر تأثير على غرار القحط والمجاعة حتى أكل أهل تلمسان لحم الميتة والدم، على قول عبد القادر الوهراني مؤرخ بايات وهران، كما وحدث في أيام حكم محمد بن عثمان الباي المشهور بحبه للعلم والعلماء وتقريبهم إليه، إهتمام ولو ظرفيا كان لم يكن ليتجسد على أرض الواقع ويغرس مغرسا دائما، في ظل الطاعون والزلازل اللذان لم يحدث مثلهما قط أيام حكم هذا الباي، لتفاصيل أكثر ينظر: أبو عبد الله مسلم بن عبد القادر الوهراني الحميدي الزايري (ت 1249هـ / 1833م)، (1974م)، أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر أو تاريخ بايات وهران المتأخر، تح: بونار رابع، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 164 - 165.

62- أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي المسطاطي (ت 1199هـ / 1799م)، (2003م)، إحرار المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبره الحبيب، تق وتح: بوكبوط محمد، دار السويد للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، ص 331.

63- أبو عبد الله محمد بن عبد الله أيوب الملقب بالنور التلمساني (ت 1172هـ / 1758م): عالم تلمساني الأصل، أخذ عن علماء الجزائر والمغرب الأقصى، ورحل للمشرق واستقر بمصر، ودرس برواق المغاربة في الأزهر، وحصل له صيت هناك. ينظر: سيدي الحسين بن محمد الورتلاني (ت 1193هـ / 1793م)، (2006م)، الرحلة الورتلانية والموسومة ب: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، (ج2)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص ص 304 - 306. أبو راس الناصر محمد بن أحمد البرجي (ت 1238هـ / 1823م)، (1986م)، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: الجزائري محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 54 - 91.

64- أبو عبد الله محمد بن عبد الله الزجاجي (ق 12هـ / 18م): كان معاصرا للباي محمد الكبير، وتابعا لطريقة الإمام «الجنيد» في فاس، ولما استولى الحكام الأتراك على أوقاف مدرستي تلمسان، كتب الزجاجي إلى الباي محمد الكبير في ذلك فأجابه إلى طلبه وأعاد إليهما الأوقاف. وقد ألف كتب عدة في التصوف منها: «المرآة المكية في آداب الطريق والأدعية»، و«شرح لأسماء الله الحسنى». ينظر: عبد المنعم الحسني القاسمي، (2005م)، اعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، ص ص 327 - 328.

65- Edmond (D). (1909). La Société Musulmane Du Maghreb Magie & Religion Dans L'Afrique Du Nord. Imprimeur - Libraire - éditeur, Alger. P.P. 58. 89.

66-Victor (B). (1857). Les Saints De L'Algérie. Imprimerie Marc Aurel. Éditeur, Valence. P. P. 57. 90.

67- Louis (R). (1884). Marabouts Et Khouans Étude Sur L'Islam En Algérie. Adolphe Jourdan. Libraire-Éditeur. Alger. P.P. 167. 234.

68- أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي (ت 895هـ / 1490م): من مشايخ المائة التاسعة، له تأليف في العقائد الخمس وشروحاتها، وهي: «المقدمة وصغرى الصغرى والوسطى والكبرى وشرح قصيدة الجزائري»، كان زاهدا في الدنيا على حسب ما ذكره علماء تلمسان. ينظر بالتفصيل: أبو القاسم محمد بن عسكر الحسيني الشفشواني (ت 986هـ / 1578م)، (1977م)، دوحة الناشر بمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ص 121 - 122.

69- أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي المسطاطي (ت 1199هـ / 1799م)، مصدر سابق، ص 301.

- 80- أبو راس الناصر محمد بن أحمد البرجي (ت 1238هـ / 1823م)، مصدر سابق، ص 108.
- 81- نفسه، ص 108.
- 82- نفسه، ص 108.
- 83- نفسه، ص 181.
- 84- نفسه، ص 49 - 50.
- 85- نفسه، ص 50.
- 86- نفسه، ص 148.

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

المؤلف محمد بومدين، (2021)، أوضاع تلمسان الفكرية والعلمية في أعين الرحالة والجغرافيين ومُدُونَاتِهِمْ خلال العهد العثماني، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 13، العدد 01، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات. ص ص : 238-249